

يشكو ما به اليه . قيل لبعضهم : كيف تشكى الى من لا يخفى عليه خافية في
الأرض ولا في السماء ؟ فقال :

قالوا أتشكو اليه ما ليس يخفى عليه
فقلت ربى يرضى ذل العبيد لديه

وذكر ابن أبي الدنيا عن علي بن الحسن . قال : قال رجل : لأمتحنن أهل
البلاء . قال فدخلت على رجل بطرسوس وقد أكلت الأكلة أطرافه ، فقلت له :
كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت والله وكل عرق وكل عضو يألم على حسنة من
الوجع ، وإن ذلك لبعين الله ، أحبه الى أحبه الى الله عز وجل ، وددت ان ربى قطع
منى الأعضاء التى اكتسبت بها الإثم وأنه لم يبق منى الا لسانى يكون له ذا كرا .
قال : فقال له رجل : متى بدأت هذه العلة ؟ قال : أما كفاك الخلق كلهم عبيد الله
وعياله فاذا نزلت بالعباد علة فالتشكوى الى الله ليس يشكى الله الى العباد *

﴿ الباب الثانى والعشرون ﴾

(هل المصائب مكفرات أو مشيات)

وقد اختلف العلماء فى هذا الباب اختلافاً كثيراً ، وتباينوا فيه تبايناً شديداً
فذهب بعض العلماء الى انه يثاب على كل مصيبة ، وذهب طائفة أخرى من العلماء
الى أنه لا يثاب على المصائب مطلقاً ، وإنما يثاب على الصبر عليها ، حتى قطع به ابن
عبد السلام فى قواعده ، وذهب شيخ الاسلام ابن تيمية وجماعة من العلماء الى أن
اطلاق القول بالثواب ، واطلاقه بعدم الثواب كلاهما يرد عليه ما يدفعه ، وإن ثم فرق
مؤثراً نذكره فيما بعد ان شاء الله . وقد احتجت كل طائفة بظواهر مرجحة لما
ذهبت اليه كما نمند كره بعد * احتجت طائفة من العلماء الى انه يثاب على كل مصيبة
بقوله تعالى : (ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يظأون

موطئاً يفيظ الكفار ولا يبالغون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح) الآية وفي الصحيحين عن النبي ﷺ . قال : « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها الا كفر الله بها من خطاياها » - الوصب الوجع اللازم - ومنه قوله تعالى : (ولهم عذاب واصل) أى لازم ثابت ، والنصب التعب * وروى الحاكم في المستدرک أن النبي ﷺ . قال : « المصاب من حرم الثواب » * وروى ابن ماجه من حديث أبي ذر رضى الله . قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا باضاعته ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك وأن تكون في ثواب المصيبة اذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك » ورواه الامام أحمد موقوفاً على أبي مسلم الخولاني . وفي صحيح البخارى أن النبي ﷺ . قال : « ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث ^(١) الا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم » ورواه أحمد والنسائي « ما مسلمين يموت لهما ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث الا غفر لهما » وغير ذلك من الأحاديث مما اختصرته . قال النواوى رحمه الله : في شرح مسلم عند قوله ﷺ : « ما مسلم يشاك بشوكة فما فوقها الا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة » وفي رواية « الرفع الله بها درجة أو حط عنه بها خطيئة » وفي بعض النسخ « وحط عنه بها خطيئة » بغير ألف ، وفي رواية « الا كتب له بها حسنة أو حطت عنه بها خطيئة » قال : وفي هذه الاحاديث بشارة عظيمة

(١) قال الجراعى : في حاشية الفروع ، وقوله لم يبلغوا الحنث أى لم يبلغوا مبالغ الرجال ، ويجرى عليهم القلم فيكتب عليهم الحنث - وهو الأثم - قال القاضى : لا فرق بين الولد الصغير والكبير ، والحكمة في تنصيبه صلى الله عليه وسلم على الصغير هو حصول المشقة بموته لكثرة الخنوع عليه ، وهذا التنصيب خرج مخرج الغالب فنعزیه الى كل مولود وجد فيه ذلك . اهـ

للمسلمين ، فانه قل أن ينفك الواحد منهم ساعة من شئ من هذه الامور وفيه تكفير
الخطايا بالامراض والاسقام ومصائب الدنيا وهمومها وان قلت مشقتها ، وفيه رفع
الدرجات بهذه الامور وزيادة الحسنات ، وهذا هو الصحيح الذي عليه جماهير
العلماء . وحكى القاضي عياض عن بعض العلماء : أنها تكفر الخطايا فقط . ولم
يبلغهم هذه الاحاديث الصحيحة الصريحة برفع الدرجات ، وكتب الحسنات انتهى
كلامه . ويؤيد ذلك قول عائشة رضي الله عنها : ما رأيت رجلا اشتد عليه الوجد
من رسول الله ﷺ . وقوله ﷺ : « إني لا وعك مثل رجلين منكم » وإنك
لتوعك وعكا شديداً وقوله ﷺ : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم
الامثل فالمثل » . قال جماعة من العلماء : والحكمة في كون الأنبياء أشد بلاء
ثم الامثل فالمثل ، أنهم مخصوصون بكمال الصبر وصحة الاحتساب ، والأنبياء
معصومون من الخطايا ، فتمتعين الثواب والله أعلم * وفي حديث المرأة التي كانت
تصرع دليل على أن الصرع يثاب عليه أكل ثواب . وفي مسلم ، قالت امرأة :
يا رسول الله دفنت ثلاثة من الولد . قال : « احتظرت بحظار من النار » قال بعض
السلف : فقد الثواب على المصيبة أعظم من المصيبة فانه قد ثبت أن النبي ﷺ .
قال : « المصاب من حرم الثواب » * وقد تقدم . وتقدم في أثناء السكتاب أحاديث
تشهد لهذا القول والله أعلم * احتجت الطائفة الأخرى من العلماء ممن أطلق
القول بان المصائب لا يثاب عليها ، وإنما يثاب على الصبر عليها . بقوله تعالى :
(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) . قال ابن عبد السلام في قواعده : الثواب
إنما يكون على فعل العبد لا على فعل الله فيه . قال تعالى : (والذين اذا أصابتهم
مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك
هم المهتدون) فما حصل لهم من صلاة الله عليهم ورحمته لهم وهدايته إياهم بقولهم :
(إنا لله وإنا اليه راجعون) فالاسترجاع هو سبب في حصول ما ذكر ، وكذلك

حديث أبي موسى الأشعري رضى الله عنه . انه قال : قال رسول الله ﷺ :
 « يقول الله عز وجل للملك الموت : ياملاك الموت قبضت ولد عبدي ، قبضت قرّة
 عينه ونمرة فؤاده ، قال : نعم ، قال : فما قال ؟ قال : حمدك واسترجع ، قال : ابنوا
 له بيتاً في الجنة ومعه بيت الحمد » فحمده واسترجاعه هو سبب بناء البيت له في
 الجنة ، وتسمية البيت كافية . قال القاضي عياض : وقد روى عن عبد الله بن مسعود .
 انه قال : الوجل لا يكتب به أجر إنما يكفر الخطايا فقط *

﴿ فصل ﴾

(في سياق كلام شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله)

أما ما يحدّثه الله من المصائب ، فتارة بغير فعل الخلائق كالامراض ونحوها
 ونارة بفعلهم ، وفصل الخطاب أن المصائب تولدت عن عمل صالح كما تتولد عن الجهاد
 والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ونحوه ، فهذا يثاب عليه ، فإن الانسان يثيبه
 الله على عمله وعلى ما يتولد عن عمله اذا أقدم على احتماله ، فإن المجاهد قد أقدم على
 الجهاد وهو يعلم انه يؤذى في الله عز وجل ، وقد يناله ضرر في جهاده ، فتموت فرسه ،
 أو يؤخذ ماله ، أو يضرب أو يشتم ونحو ذلك . كما قال تعالى : (ذلك بأنهم لا يصيبهم
 ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطاقون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون
 من عدو نيلاً الا كتب لهم به عمل صالح) فآخبر تعالى انه يكتب لهم عمل صالح
 بما يصيبهم من التعب والجوع والمطش ، ونحو ذلك الذي حصل لهم بسبب الجهاد
 في سبيل الله عز وجل ، فهذه الأمور يغفر الله بها خطاياهم ، ويؤجر على هذه المصائب
 لأنها حصلت بسبب جهاده ، فهي مما تولد عن عمله ، وما تولد عن عمله الصالح من
 المصائب يثاب عليها * وأما الجوع والمطش والتعب الذي يحصل بدون ذلك فلا
 يثاب إلا على الصبر عليه ، فإنه ليس من عمله ولا متولداً عن عمل صالح ، لكن هو
 من المصائب التي يكفر الله بها خطاياهم * وأما المصيبة بالولد ، فالولد تولد عن جماعه

الذى صان نفسه به عن الزنا وقصده به النسل وتكثير الأمة وغض البصر عن
الحجرام ، فاذا حصل له ذلك ثم مات الولد فقد أثيب عليه من جهة ، وكفر الله به
خطايا من جهة ، لانه تولد عن عمله * وأما الامراض والاسقام فهي تكفر الخطايا *
وقد روى أن أبا عبيدة بن الجراح لما عادوه . وقالوا له : أجر . فقال : ليس لي من
الأجر مثل هذه ، ولكن المرض حطة يحط الله به الخطايا . فهذا الذى ذكرته هو
الفرق بين المصائب التى يثاب عليها ، والمصائب التى لا يثاب عليها ، فان بعض
الناس يظن إنه يثاب على كل مصيبة ، ومن العلماء من يطلق القول بان المصائب
يثاب عليها ، وانما يثاب على الصبر عليها . ثم قال بعد ذلك بكلام كثير : فمن فعل
فعلا صالحا باختياره فأوذى واحتسب ذلك الأذى ، كان ذلك الأذى من عمله
الصالح الذى يثاب عليه ، كالصائم اذا احتسب جوعه وعطشه . وقد قال صلى الله عليه وسلم
: « خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » وخلوف تولد عن صومه
بغير اختياره ، لكن تولد عن عمل صالح وكذلك القائم بالليل اذا احتسب تعب
وسهره ، فان الأذى الذى يحصل باختيارك فى طاعة الله أنت جلبته على نفسك
باختيارك طاعة الله ، فليس هو كمن أوذى بغير اختياره ، فان ذلك أذاه مصيبة
محمضة ، لكن هى حق له على الظالم . وقال الشيخ رحمه الله فى قول النبى صلى الله عليه وسلم
: « لا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له وليس ذلك لاحد الا للمؤمن إن
أصابته سراء شكر كان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » وهى نفسها
تكفر خطايا ويؤجر على الصبر عليها ، ففيها له مغفرة من جهة ما يكفره من الخطايا ،
وله فيها رحمة من جهة ما يؤجر على الصبر عليها ، لا سيما اذا اقترن بها توبة وأناة
الى الله ، وتوكل عليه وتوحيد له ، وإخلاص الدين له ، فانها تكون من أعظم النعم ،
ومصيبة تقبل بها على الله خير لك من نعمة تنسيك ذكر الله . قال بعض السلف :
يا ابن آدم لقد بورك لك فى حاجة أكررت فيها قرع باب سيدك ، وفى الحديث .

إذا قالوا للمريض : اللهم ارحمه . يقول الله عز وجل : كيف أرحمه من شيء به أرحمه ؟ وفي الأثر : يا ابن آدم البلاء يجمع بيني وبينك ، والعافية تجمع بينك وبين نفسك . انتهى * والمقصود من كلام الشيخ رحمه الله ان كل ما تولد عن عمله الصالح من المصائب أتيب عليه بخلاف المصائب التي لم تنولد عن عمله فانها مكفرات لامثبات *

﴿ فصل ﴾

قال الشيخ رحمه الله : وكثير من الناس لا يعرف النعمة الا ما يلتذ به في دنياه ، كما قال بعض السلف : من لم يعرف نعمة الله الا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه : وحضر عذابه . فمن الناس من يرى النعمة في بدنه فقط بالأكل والشرب والنكاح ، ومنهم من يرى النعمة بالرئاسة والجاه ونفاذ الامر والنهي وقهر الاعداء ، ومنهم من يرى النعمة في جمع الاموال والقناطير المقنطرة ، وهؤلاء من جنس الكفار ، يرون هذه نعماً ، وأعلى من هؤلاء من يرى النعمة في الايمان والعمل الصالح ، لكن لا يرى الأمر بذلك والجهاد عليه نعمة ، بل يرى فيه من المضار ما يوجب تركه ، والذين يرون هذه النعمة منهم من لا يراه نعمة الا مع السلامة والغنيمة ، فان جرح أو قتل بعض أولاده ، أو أخذ ماله ، عد ذلك مصيبة لا نعمة * وحجة هؤلاء كلهم ان النعمة ما يتنعم به العبد وهذه الامور تؤلم للنفس فلا تكون من النعم بل من المصائب ، ولا ريب أنها من المصائب باعتبار ما يحصل فيها من الألم ، ولهذا أمر بالصبر عليها ، لكن لا منافاة بين كون الشيء مصيبة باعتبار ، ونعمة باعتبار ، فباعتبار ما يحصل به من الأذى هو مصيبة ، وباعتبار ما حصل به من الرحمة نعمة وهذا لانه اذا قيل هذا يكفر به الخطايا ويؤجر عليها ويؤجر على الصبر عليها كانت نعمة ، وهذا بمنزلة شرب المريض الدواء الكريه ، هو مصيبة باعتبار صرارته ، وهو نعمة باعتبار ازالته للعرض الذي هو أشد ضرراً فيه ، وأدنى الشرين

إذا زال أعظمهما كان نعمة ، ومن استعمل نعمة الله في المعاصي كانت شرّاً في حقه ،
لأنها جرته الى العذاب الذي هو أعظم من تلك اللذة ، كمن آكل عسلاً فيه سم ،
فإن ضرر السم أعظم من حلاوة العسل . والله أعلم انتهى كلامه *

﴿ الباب الثالث والعشرون ﴾

(في الصدقة عن المصاب به وأفمال البر عنه)

وهذا الباب مما يطيب قلوب أهل المصائب على مصابهم ، فانهم إذا بدلوا بدل
الحزن والبكاء ولطم الحدود وشق الثياب والنياحة ، الصدقة والدعاء والاستغفار
وقراءة القرآن والصلاة والصيام ، ونحو ذلك من أفعال القرب ، وعلموا وصولها الى
موتاهم ، وأنه يحصل لهم بذلك : إما تكفير سيئات ، أو رفع درجات ، أو كلاهما
حصل لهم المرور بذلك والفرح الزائد ، وهذا الباب منعقد على إهداء القرب
الى الموتى والأحياء فنذكر اختلاف العلماء في وصول ثواب ذلك اليهم ، فمن أنواع
القرب قرب لم يختلف العلماء في وصول ثوابها الى الموتى ، ومن قرب يختلف العلماء
في وصول ثوابها اختلافاً كثيراً ، فنذكر ما يسره الله تعالى في ذلك ، فإن ذكر
الاختلاف والبسط سبيل ذلك الكتب المطولة *

﴿ فصل ﴾

(في ذكر اختلاف الناس في وصول ثواب إهداء القرب الى الموتى)

أما الدعاء والاستغفار والصدقة وقضاء الدين وآداء الواجبات ، فلا أعلم خلافاً
في وصولها ، حكاهما غير واحد من العلماء ، ومن العلماء من يشترط في الوصول
إذا كانت الواجبات مما يدخله النيابة . قال الله تعالى : (والذين جاؤا من بعدهم
يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين
آمَنوا) الآية . وقال تعالى : (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) ودعا النبي